شرح كتاب

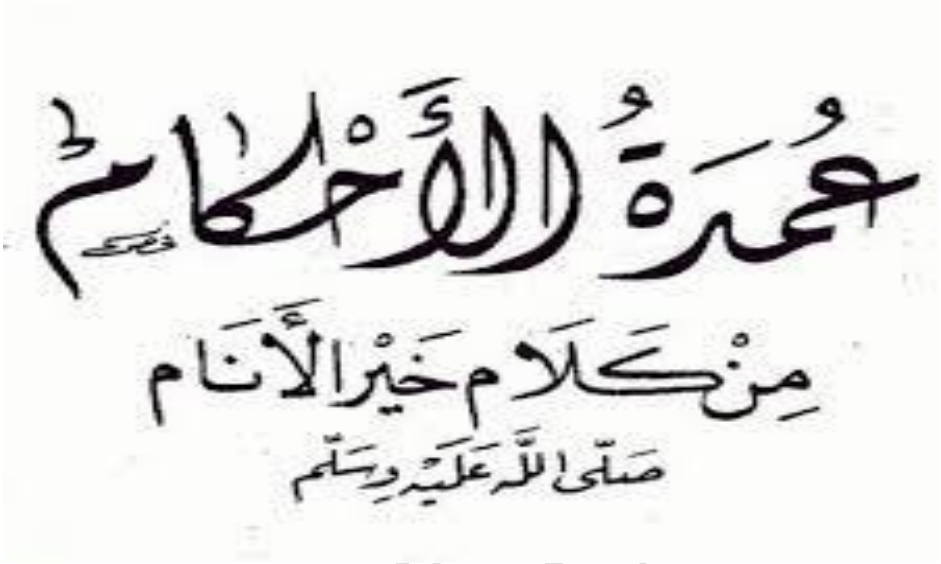

لفضيلة الشيخ/ عمر القثمي

عمدة الأحكام

الدرس الأول

الحمد لله رب العالمين صلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وعلى من سار على دربهِ وتمسك بسنتّه إلى يوم الدين.

نسأل الله –سبحانه وتعالى–في بداية هذا اللقاء أنْ يجعله لقاءً مباركًا ممنونًا، وأنْ يجعل التفرق من بعده معصومًا، وألا يجعل من بيننا ولا معنا ولا من أحدٍ من المسلمين شقيًا ولا محرومًا، وأن يرزقنا علمًا نافعًا وعملًا صالحًا.

بين أيدينا اليوم كتاب من أعظم دواوين السنّة، ومن أشهرها وهو (كتابُ عمدة الأحكام في كلام خير الأنام) وقبل أن نشرع في الحديث عن هذا الكتاب، نُقدِّم بتمهيد، ثم بمقدمتين، ثم نبدأ إن شاء الله –عز وجل–إنْ بقي متسع في الشروع في الكتاب الذي بين أيدينا.

أما بالنسبة للتمهيد فهو حول الأدب –أدب طلب العلم–، والأدب من أجلِّ الأمور التي ينبغي لطالب العلم أن يتحلى بها، وهذه الآداب من حيث الحكم منها ما هو واجب، ومنها ما هو مستحب.

ويُمكن أن نُقسم هذه الآداب من حيث موضع التحلي بها إلى ثلاث أقسام:

- القسم الأول آدابٌ قبل طلب العلم والشروع فيه.
- والقسم الثاني آدابٌ أثناء طلب العلم.
- والقسم الثالث آدابٌ بعد الحصول على العلم.
- **أما بالنسبة للقسم الأول:**

وهي الآداب التي تكون قبل الشروع في طلب العلم فمن أجلها وأعلاها وأسماها صلاح القلب، وتهذيب النفس، وهذا أمرٌ قد يغفل عنه البعض، فإنَّ صلاح القلب قبل الشروع في العلم من أعظم أسباب التوفيق في الحصول على العلم.

ولهذا كان سفيان الثوري –رحمه الله تعالى–يقول: كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدَّب وتعبَّد قبل ذلك بعشرين سنّة. انظر كيف كانوا –رحمهم الله تعالى–يحرصون بزمن قبل أن يبدؤوا بطلب العلم على تهيئة أنفسهم لتلقي هذا العلم، فإنَّ هذا العلم ميراثُ النبوة.

وقد قال الله –عز وجل–لنبيه:﴿ **إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا**﴾[المزمل:٥]، فهذا العلم هو ميراث النبي –صلى الله عليه وسلم–ولهذا كان لا بُد من تهيئة القلب الذي هو موضع حصول هذا العلم.

- **الآداب التي تكون أثناء طلب العلم:**

١–اللجأ والدعاء:

وأما بالنسبة للآداب التي تكون أثناء طلب العلم فهي كثيرة، والظن أنها معلومة لكن نشيرُ إليها سريعًا دون تفصيل، فمن هذه الآداب: اللجأ والدعاء، فهذا العلم هو محو فضلٍ من الله –سبحانه وتعالى–يؤتيه من يشاء، ولهذا ينبغي للطالب والطالبة أن يلجئوا إلى الله –عزَّ وجل–وينفلحوا بين يديه، ويسألونه –سبحانه وتعالى–أن يفتح عليهم في العلم، وأن يرزقهم حسن الفهم.

٢–التهيؤ لمجلس العلم:

ومن الآداب التي تكون أثناء طلب العلم: التهيؤ لمجلس العلم، كانوا قديمًا –رحمة الله عليهم–يتهيؤون حتى في لباسهم، تنظفهم، وتطيبهم، فقد كانوا قديمًا يتهيئون كما جاء عن الإمام مالك –رحمه الله تعالى–أنَّ أمه كانت تهيؤه لحضور مجلس الحديث.

٣-ومن الآداب التي تكون أثناء طلب العلم: الجد، والاجتهاد، والصبر، والمصابرة؛ لأن هذا العلم يحتاجُ إلى صبر عظيم، صبر في حفظه وتلقيه، وصبر في فهم المسائل وتصورها، وصبرٌ في العمل والتطبيق، وصبرٌ في التبليغ والدعوة.

٤-ومن الآداب: الحفظ لما يتلاقه الطالب من العلم، ومن الآداب كذلك المراجعة والمذاكرة.

٥-ومن الآداب التي تكون أثناء طلب العلم الأدب مع المعلم، والأدب مع كتاب العلم، والأدب في مجلس العلم، والأدب مع رفيقه في طلب العلم، وهذه أشار إليها الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله تعالى-في كتابه النافع الماتع (حلية طالب العلم)، ويُمكن للطالب أن يُراجعه.

- **الآداب التي تكون بعد الحصول على العلم:**

وأمَّا القسم الثالث، فهي الآداب التي تكون بعد الحصول على العلم: ومن أبرز هذه الآداب:

١-العمل بالعلم: هتف العلم بالعمل فإن أجاب وإلا ارتحل، ومن حصل العلم ولم يعمل به كان علمه وبالًا عليه، وهي طريقة المغضوب عليهم الذين علموا، ولم يعملوا، ومن الذين تُسعَّر بهم النّار العالِم الذي لا يعمل بعلمه.

٢-ومن الآداب كذلك ظهور أثر العلم عليه: فمن أخذ العلم فينبغي أن يتحلى بسمته وهديه، فإذا رآه الرائي علم أن في صدره ميراث النبوة، ولهذا كان ابن مبارك -رحمه الله تعالى- يقول: (**كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه.**).

٣- ومن الآداب التي تكونُ بعد الحصول على العلم الدعوة إليه: قال الله -عزَّ وجل-: ﴿**وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾[العصر: ١-٣].

وعلى كل حال فإنَّ الأدب كما ذكرت في أول الحديث من الأهمية بما كان، فإن الله –سبحانه وبحمده– لما أراد أنْ يتحدث مع موسى قال: «**أخلع نعليك**»، قال بعض العلماء: في هذا إشارة إلى أنهُ ينبغي التحلي بالأدب قبل الطلب.

– قال ابن الجوزي –رحمه الله تعالى–: (**كاد يكون الأدب ثلثي العلم**)، وكان بعض العلماء يقول: تعلمنا العلم قبل الأدب، وياليتنا تعلمنا الأدب قبل العلم.

وكم من طالبٍ حصل علمًا وحفظ مسائل لكنه بعيدٌ عن كثير من آداب الطلب، فلا تجدُ لعلمه بركة ولا أثر، فتُنزع البركة –والعياذ بالله– وكم من إنسان ربما كان أقل منه علمًا، وفهمًا، وحفظًا تحلى بآداب الطلب في نفسه ومع معلمه فبارك الله –عزَّ وجل– في علمه.

وهذا تمهيد في درسنا، وأمَّا المقدمات فلدينا مقدمتين:

– المقدمة الأولى: تعريفٌ بمؤلف الكتاب الذي بين أيدينا.

– والمقدمة الثانية: التعريف بالكتاب.

- **أما المقدمة الأولى:**

فهي التعريف بالمؤلف مؤلف الكتاب الذي بين أيدينا، هو الإمام الحافظ تقي الدين أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي –رحمة الله عليه– وهو من فُقهاء الحنابلة ولد عام خمس مائة وواحد وأربعين، وتوفي عام ست مائة، ولم يذكر السيرة؛ لأن سيرتهُ متداولة مطروحة يمكن للطالب أنْ يُراجعها في أي مرجع من مراجع السير، لكنني سأُشير إلى بعض الملامح في سيرتهِ –رحمه الله تعالى–.

– فالملمح الأول أنَّ أنهُ –رحمه الله تعالى– منذُ صغره نشأ في طلب العلم، وفي هذا فائدة أهمية طلب العلم المبكر، فكلما كان طلب العلم مبكرًا كان ذلك أفضل لصاحبه، ولا يعني ذلك أنَّ من فاتهُ الطلب في الصغر، فإنهُ لا ينفعهُ في الكبر ليس هذا المراد.

لكن المراد أنَّ الطلب في الصغر أكثر فائدة في الجملة؛ لأن الصغير بعيدٍ عن الأشغال والصوارف وذهن حاضر بخلاف الكبير، وإلا فهناك صور لأناس طلبوا العلم على كبر فتح الله –عزَّ وجل– عليهم.

ومن أولئكم: ابن حزم الأندلسي الظاهري –رحمه الله تعالى–، فقد طلب العلم عن كبر، وفتح الله –عزَّ وجل– عليه حتى سار إمامًا –رحمة الله عليه–.

فمؤلفنا –رحمه الله تعالى– طلب العلم من صغر، فبدأ بحفظ القرآن، وحفظ العديد من الأحاديث النبوية.

من ملامح سيرته: ما اشتُهِر عنه من كثرة العبادة، والزهد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وهذا والله ملمحٌ مهمٌ جدًا، فالسلف –رحمة الله عليهم– كانوا لا يفصلون العلم عن العمل، فتجد العالم في نفس الوقت من أشهر العُباد، فكان يُعرف بكثرة العلم وبشدة العبادة، لك حالِ بعض الناس ربما كان عنده علم، لكن في جوانب التعبد الأخرى تقصير، وهذا ملمح كما ذكرت مهمٌ جدًا.

الملمح الثالث: أنَّ المؤلف –رحمة الله عليه– كان حريصًا على ألاَّ يصرفه عن العلم صارف، فقد حصل في زمنه –رحمه الله تعالى– عدة أمور كِبار ومع هذا لم تصرفهُ عن طلب العلم، فقد حصل في عصره مجاعة عظيمة في مصر حتى أكل الناس من الجوع أوراق الشجر وجلود الحيوانات، وكان يموت منهم المئات في اليوم الواحد.

وحصل في زمنه المعركة المشهورة بين المسلمين والنصارى في الأندلس المعروفة بمعركة الزلَّاقة، وحصل في زمنه الزلزال العظيم الذي ضرب الشام، وبقي أيامًا حتى ظن الناس أنها زلزلة الساعة وقيام القيامة، فكلُ هذا لم يصرف الشيخ –رحمة الله عليه– عن تحقيق ما يصبو إليه، ففي هذا فائدة عظيمة لطالب العلم ألاَّ ينشغل بهنيَّات الطريق عن المقصد الأسمى، لا سيما في زماننا الحاضر –زمن الفتن والحوادث المتنوعة– فكم سمعنا بأناسٍ كان لهم حظ في طلب العلم انشغلوا كثيرًا بتتبع الأخبار، بل وتناقل الشائعات، فينبغي لطالب العلم أنْ ينتبه لهذا الأمر.

- **المقدمة الثانية التعريفُ بالكتاب.**

وهذا سنُفصل فيه؛ لأن من المهم أنَّ طالب العلم إذا أراد أنْ يدرس كتابًا أنْ يعرف عن الكتاب ما يدعوهُ إلى التمسك بهذا الكتاب، فمن عرف قيمة الشيء حرص عليه، فسنذكرُ بعض المباحث المتعلقة في هذا الكتاب المبارك.

المبحث الأول: اسم الكتاب، اسمه "**عمدة الأحكام من كلام خير الأنام**" –صلى الله عليه وسلم– وقد جعلهُ المؤلف –رحمة الله عليه– فيما أتفق عليه الشيخان.

المبحث الثاني: موضوع الكتاب، موضوع الكتاب الأحاديث النبوية المتعلقة بالأحكام الفقهية، وقد صنف المصنف –رحمة الله عليه– هذه الأحاديث على ترتيب الكتب الفقهية، وقد اشتمل الكتاب على ستة عشرة كتابًا من كتب الأحكام، واحتوى على أربعمئة وسبعة أحاديث.

المبحث الثالث: سبب تأليف هذا الكتاب، وضح المؤلف –رحمة الله عليه– في مقدمة كتابه، كما سيمرُ معنا إن شاء –عزَّ وجل– أنَّ سبب ذلك سؤال بعض إخوانهِ أنْ يكتب لهم كتابًا مختصرًا في الأحكام، وفي هذا فائدة منهجية وهي أنَّ السلف لم يكونوا يؤلفون لمجرد شهوة

التأليف أو لقصد الشهرة أو لقصد عائد مادي، وإنما كانوا يؤلفون ويصنفون لحاجة (٢٣:٥٠) الناس لما سيكتبونهُ.

المبحث الرابع: غرض المصنف –رحمه الله تعالى– من هذا الكتاب: غرض المؤلف –رحمة الله عليه– كما سيمرُ معنا رجاء النفع الأخروي، وهذا هو سر بركة علمهم وانتشار مصنفاتهم، وفي هذا فائدة سلوكية لطالب العلم أنْ يُخلص قصده حين الطلب، وألاَّ يقصد الدنيا من مالٍ أو شهرةٍ أو نحو ذلك.

المبحث الخامس، وهو مبحثٌ مهم: مميزات الكتاب، امتاز الكتاب بعدة مميزات تدلُ على أهمية هذا الكتاب، وعلى أنهُ ينبغي لطالب العلم أنْ يدرسهُ.

١. أولًا الميزة الأولى: أنَّ هذا الكتاب كتابٌ حديثي، فهو متعلقٌ بمصدر من مصادر التشريع، وهي السنّة والتي يؤخذُ منه الأحكام مباشرةً.

٢. الميزة الثانية: أنَّ جميع ما في هذا الكتاب هو من الأحاديث الصحيحة، وقد التزم المصنف –رحمة الله عليه– أنْ يكون جميع ما في مصنفهِ مما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم –رحمة الله عليهما–، لكنه –رحمه الله– لم يلتزم بهذا في جميع الكتاب، فهناك أحاديث انفرد بتخريجها إما البخاري أو مسلم، وهذا لا يضر من حيث قيمة الكتاب؛ لأن الأمّة اتفقت على قبول ما في البخاري ومسلم.

٣. الميزة الثالثة: أنَّ المصنف –رحمه الله تعالى– حذف أسانيد الأحاديث، كذلك تسهيلًا للحفظ.

٤. الميزة الرابعة: أنهُ في كثير من الأحيان يكتفي بذكر موضع الشاهد من الحديث على الحكم الفقهي، ولا يُورد الحديث بأكمله وذلك تسهيلًا للطالب.

٥. الميزة الخامسة: أنهُ ربما ذكر بعض ألفاظ الحديث؛ ليُفسر السنّة بالسنّة، وهذا سيمرُ معنا أمثلته إن شاء الله.

٦. الميزة السادسة، وقد أشارنا إليها سابقًا: أنهُ رتب الأحاديث على الأبواب الفقهية؛ وذلك تسهيلًا لطالب التفقهي في الأحكام العملية.

المبحث السادس: أبرز شروح كتاب عمدة الأحكام، هناك شروح لهذا الكتاب قديمة، وهناك شروح معاصرة وهي كثيرة لكن نذكرُ منها:

١– أما بالنسبة للكتب القديمة:

فأولها كتاب إحكام الأحكام لابن دقيق العيد –رحمه الله تعالى– المتتوفى سنة سبع مائة واثنين، وهو شرح نفيس وقد اهتم فيه بالتأصيل والتقعيد، وأفضل طبعةٍ له طبعة الشيخ أحمد شاكر وحامد التقي.

الشرح الثاني: العُدة في شرح العمدة في أحاديث الأحكام لعلاء الدين بن العطار الشافعي المعروف بالنووي الصغير، المتوفى سنة سبعمائة وأربعة وعشرين للهجرة.

الشرح الثالث: الإعلام بفوائد عمدة الأحكام لابن الملقن –رحمه الله تعالى– المتوفى سنة ثمانمائة وأربعة، وهو شرحٌ بالمنهج التحليلي، فيقف عند كل كلمة من كلمات الحديث، ويُفصِّل فيها ويُحللها، وقد حُقِّق في إحدى عشر مجلد.

الشرح الرابع: كشف اللثام شرح عمدة الأحكام لمحمد بن أحمد السفَّاريني –رحمة الله عليه–

.

٢- وأما الشروح المعاصرة فمنها:

أولًا التعليقات على عمدة الأحكام من علامة القصيم في وقته عبد الرحمن بن ناصر السعدي -رحمة الله عليه-.

الشرح الثاني: تنبيهُ أولي الأفهام لشيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين -رحمة الله عليه-.

الشرح الثالث: تيسير العلَّام شرح عمدة الأحكام للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن البسام -رحمة الله عليه-، وهذا الشرح هو شرحٌ واضح العبارة، سهل الفهم، وطريقتهُ أنهُ يتناول المعنى اللغوي، ثم يتحدث عن المعنى المباشر للحديث، ثم يذكر بعد ذلك جملة من الفوائد المستفادة والمستنبطة من الحديث، وهذا الكتاب له عدة طبعات أحسنها طبعة دار الميمان في مجلدين باعتناءِ ولد المؤلف بسام.

هذه مقدمات رأيت أنهُ يستحسن البدء بها، وسيكونُ إن شاء الله -عزَّ وجل- في اللقاء القادم الشروع في أصل الكتاب، فسنتحدث عن المقدمة فمن شرع إن شاء الله -عزَّ وجل- في دراسة وتدارس الأحاديث التي ذكرها المؤلف -رحمة الله عليه-.

نسأل الله -عزَّ وجل- أنْ يجعل فيما ذكرنا نفعًا وفائدةً للمتحدث والسامع والله أعلم، وصلّ الله وسلم وبارك على نبيِّنا محمدٍ وعلى آله.

تم إلقاؤه يوم الجمعة ١٦ محرم ١٤٣٩ هـ الموافق6\10\2017

معهد العلوم الشرعية العالمي